سبعة أدوار ...

قصة ايطالية بقلم دينو بوتساتي

ترجمة خليفة محمد التليسي

بعد رحلة يوم كامل في القطار ، وصل جيوسيبي كورتي ، في صبيحة احد ايام مارس ، الى المدينة حيث توجد العيادة الشهيرة. كان يحس بشيء من الارتفاع في درجة حرارته ، ولكنه صمم ان يقطع الطريق الواقعة بين المحطة والمستشفى على قدميه حاملا وحده حقيبته.

وعلى الرغم من ان اعراض الحالة التي يعانيها كانت خفيفة وفي البداية ، فقد نصح بالتوجه الى هذه المصحة المشهورة حيث لا يعالج الا ذلك النوع الوحيد من المرض . مما يضمن تخصصا فريدا بين الاطباء، كما يضمن استفادة كاملة ، وناجعة من تنظيمات الاجهزة.

ولما أبصرها من بعيد ـ اذ سبق أن تعرف عليها حين رآها مصورة في احد المنشورات الدورية ـ كان الانطباع الذي تملكه حسنا . فالمبنى الابيض ذو السبعة ادوار كان مفصولا بمداخل منتظمة تطلع عليها مظهر الفندق. وكان يحيط به طوق من الاشجار العالية .

وبعد ان أجري عليه كشف طبي عام تمهيدا لفحص أدق ، وضع « كورتي » في حجرة بهيجة منشرحة من الدور السابع والاخير . كان الاثاث نظيفا ، فاتح اللون ، وكذلك فرش الغرفة . أما الارائك فكانت خشبية . وكانت الوسائد مغلفة بأقمشة ملونة . والمنظر ينبسط على حي من أجمل أحياء المدينة . كل شيء هادىء ومضياف ، وباعث على الاطمئنان .

ودخل « كورتي » في الحال الى السرير ، فأوقد المصباح الذي يقع عند رأسه، وشرع يقرأ كتابا كان قد حمله معه . وبعد برهة قصيرة ، دخلت عليه ممرضة تسأله عما اذا كانت به رغبة في شيء من الاشياء.

ولم يكن « كورتي » يرغب في شيء . ولكنه أخذ يتحدث الى الفتاة، يسألها معلومات عن العيادة . وعرف منها الطابع الغريب الذي يتميز به هذا المستشفى . فالمرضى موزعون دورا بعد اخر حسب خطورة احوالهم. فالسابع أي الاخير ، كان مخصصا للحالات الخفيفة ، والسادس كان مخصصا للمصابين بمرض غير خطير ، ولكن لا يستدعي الاهمال . والخامس تعالج فيه الاصابات الحقيقية . وهكذا بالتوالي من دور الى دور . وفي الثاني ينزل مرضى الحالات الخطيرة . اما الاول فينزل فيه أولئك الذين فقد الرجاء في شفائهم.

هذا التنظيم الفريد ، من شأنه ـ بالاضافة الى التعجيل في تقديم الخدمات بشكل عظيم ـ أن يحول بين المصاب بمرض خفيف ، والتعرض للازعاج الذي قد يسببه زميل يتجرع غصص النزع الاخير . ويضمن لكل دور من الادوار جوا موحدا في نوعه . ومن جهة أخرى ، فان العلاج يمكن ان يتم تدريجيا وبطريقة كاملة .

وقد نتج عن تقسيم المرضى وتوزيعهم على سبعة ادوار ، أو طبقات متدرجة ، ان صار كل دور عالما منفصلا لذاته، بنظمه الخاصة ، وتقاليده الخاصة . ونظرا الى ان كل قسم كان موكولا الى طبيب ، فقد نشأ ولو بشكل طفيف ، اختلاف ظاهر في طرق العلاج ، رغم ان المدير العام قد طبع المؤسسة بوجهة رئيسية واحدة .

وحين خرجت الممرضة، تهيأ له ان الحرارة قد زالت عنه . فاقترب من النافذة ، ونظر خارجها ، لا لكي يلاحظ المنظر العام للمدينة ، ذلك المنظر الجديد عليه ، ولكنه كان يؤمل ان يرى من خلال النافذة ، مرضى اخرين من نزلاء الادوار السفلى . وكان تركيب المبنى بفواصله الكثيرة، يتيح الفرصة لمثل هذه الملاحظة . وقد ركز كورتي ـ فوق كل شيء ـ انتباهه وسلطه على نوافذ الدور الاول التي كانت تبدو له بعيدة ، ولا تأخذها العين الا جانبيا. ولكنه لم ير شيئا ذا أهمية . فأغلبها قد انسدلت عليه الستائر الخشبية .

وانتبه كورتي الى أن رجلا يطل من النافذة المجاورة له، وتبادلا النظرات في تعاطف بالغ . ولكنهما لم يعرفا سبيلا يزيحان به الصمت . وأخيرا تشجع كورتي وقال :

ـ حتى أنت تقيم هنا ، منذ قليل ؟

فأجاب الاخر :

ـ كلا . انا موجود هنا منذ شهرين .

ثم سكت قليلا . ودون ان يعرف كيف يواصل الحديث أضاف :

ـ اني أنظر أخي الذي يقيم تحت.

ـ أخوك ..!؟

وأخذ الرجل المجهول يوضح له قائلا :

ـ نعم . لقد دخلنا معا . انها لحالة غريبة حقا . ان حالته اخذت تسوء ، ولذلك فهو يقيم الان في الرابع .

ـ أي رابع ؟

ـ الدور الرابع ...

أوضح ذلك الشخص المجهول ، ونطق بهذه الالفاظ محملة بالتعبير عن الاسى والفزع. حتى أن كورتي لبث مرتاعا ، وسأل في حذر:

ـ أهم على هذه الحالة من الخطورة ، نزلاء الدور الرابع؟

فهز الاخر رأسه بهدوء ، وقال :

ـ يا الهي ! انهم لم يفقدوا الرجاء ، ولكنهم في الوقت نفسه لا تسمح لهم اوضاعهم بالانشراح.

وسأل كورتي في استهانة ساخرة ، كمن يشير الى أشياء فاجعة لا تخصه أو تتصل به .

ـ اذن .. ماذا يصنعون في الدور الاول ، اذا كان مرضى الدور الرابع على هذه الدرجة من الخطورة ؟

ـ اه . الدور الاول ..! هناك يوضع المحتضرون . ليس هناك عمل للاطباء . وانما القسيس وحده هو الذي يشتغل .. وطبيعي..

ولكن كورتي قاطعه ، وفي نفسه خوف من ان يحصل على مزيد من التأكيدات ، قائلا :

ـ لا شك أنهم قلائل ، نزلاء الدور الاول . جميع الحجرات تكاد تكون مغلقة .. فأجابه المجهول ، وابتسامة رقيقة على شفتيه :

ـ الان قلائل . ولكن في الصباح كانوا كثيرين . حيث تكون النوافذ مغلقة فهناك ميت ترك العالم منذ قليل . ألا ترى النوافذ مفتوحة في بقية الادوار ؟. ولكن معذرة .

وأضاف وهو ينسحب بالتدريج :

ـ يبدو لي أن الجو قد أخذ في البرودة ، سأعود الى الفراش . تقبل تمنياتي الطيبة .

واختفى الرجل من النافذة ، التي أغلقت في قوة . ثم لمح ضوءا

ينبعث منها ، ووقف كورتي قرب النافذة ، يحدق في النوافذ المغلقة في الدور الاول . كان يحدق فيها بالحاح يحاول ان يتخيل اسرار ذلك الدور الاول المخيف ـ الذي يعزل فيه المرضى لكي يموتوا . وأحس بالراحة تغمر كيانه لبعده عن هذا الدور .

وعلى المدينة كانت تخيم ظلال المساء ، وأخذ الضوء ينبعث من النوافذ الالف بالمستشفى ، واحدة بعد اخرى . حتى ليمكن ان يتخيله الانسان من بعيد قصرا نجري فيه احتفالات . وفي الدور الاول فقط ، هناك في أعماق الهاوية ، كانت عشرات من النوافذ مظلمة عمياء.

واطمأن كورتي الى نتائج الكشف الطبي العام . كان ميالا لتوقع السوء . وكان قد هيأ نفسه لتقبل الحكم القاسي. ولم يكن ليفاجأ لو أن الطبيب أعلن له أنه سيوجه الى الدور الذي تحت . ولكن الحرارة لا تنبىء بالزوال . رغم أن احواله العامة كانت محتفظة بمستوى طيب. ووجه اليه الطبيب كلمات لطيفة ومشجعة ..

ـ ان الاعراض الاولى للمرض موجودة ، ولكنها خفيفة ، وفي البداية . ومن المحتمل ان يزول عنك الالم خلال اسبوع او اسبوعين.

وعند هذه النقطة تساءل في قلق :

ـ اذن فسوف أبقى بالدور السابع ..؟

ـ طبيعي.

أجاب الطبيب وهو يربت على كتفه ، في مودة .

ـ وأين تريد أن تذهب ؟ الدور الرابع ؟

سأله وهو يضحك . فقال كورتي :

ـ ذلك أحسن .. ذلك أحسن . أتدري ان الانسان المريض يتخيل ويتوقع دائما الاشياء السيئة .

وفعلا أقام كورتي في الحجرة التي قررت له في الاصل . وتعرف على بعض زملائه في المستشفى ، أثناء الامسيات القليلة التي كان يسمح له فيها بمغادرة السرير. وتابع بدقة تامة العلاج ، والتزم بكل قواه ان يشفى تدريجيا ، الا ان حالته بالرغم من ذلك ظلت ثابتة .

وانقضت عشرة أيام تقريبا ، عندما تقدم الى كورتي رئيس المرضين بالدور السابع . لقد جاء يلتمس منه فضلا ينجزه بطريقة ودية تماما. واخبره انه في اليوم التالي سوف تدخل المستشفى سيدة مع طفلين. وهناك حجرتان شاغرتان بجواره . وتنقصهم الثالثة. الا يتفضل السنيور كورتي بقبوله الانتقال الى حجرة اخرى ، هي أيضا مريحة .؟

ولم يثر كورتي أية صعوبات : هذه الحجرة او غيرها ، كلها سواء. ربما كان من نصيبه غرفة جديدة ، وممرضة لطيفة .

قال رئيس المرضين ، وهو ينحني انحناءة خفيفة .

ـ اني أشكرك من الاعماق . لا يستغرب مثل هذا التفضل الفرساني من شخص مثلك.بعد ساعة. اذا لم يكن لديك اي اعتراض. سننفذ الانتقال. انما ينبغي ان تعرف انك ستنزل الى الدور الذي يلي هذا.(واضاف في صوت خفيض كما لو كان الموضوع الذي يريد التحدث عنه ، مما ينبغي التغاضي عنه) والسبب انه لا توجد حجرات خالية بهذا الدور . الا انه ينبغي ان يكون على يقين ، انه تدبير مؤقت (واسرع يوضح حين رأى كورتي يفتح فمه دلالة الاحتجاج) قطعا انه تدبير مؤقت . فلا تشغر أية حجرة حتى تعود ، وأعتقد أننا لن نحتاج الى الانتظار أكثر من يومين أو ثلاثة) ..

وضحك كورتي. ضحكة من يريد ان يبرهن انه ليس طفلا .. وقال:

ـ أعترف .. بأن مثل هذه النقلة لا تعجبني على الاطلاق .

ـ ولكن ليس لهذا الانتقال أي مبرر صحي. اني أفهم ما تريد ان نقول . الموضوع يتعلق بمجاملة نقدمها لهذه السيدة ، التي تفضل ألا تفترق عن طفليها . أرجوك.

وأضاف وهو يضحك ضحكة قوية ..

ـ لا يخطر ببالك أن هنالك أسبابا أخرى.

قال كورتي :

ـ ليكن كلامك صدقا ، ولكن يتهيأ لي أن الانتقال قال غير جميل.

وانتقل كورتي الى الدور السادس . ورغم اقتناعه بأن هذا الانتقال لا يستند على أي تدهور في حالته الصحية ، فانه كان يشعر بالقلق لمجرد الفكرة التي تخالجه بأن هناك عقبة تقوم بينه وبين العالم العادي، عالم الاصحاء من الناس ، نزلاء الدور السابع ، ميناء الوصول.

كان له هناك نوع من الصلة بعالم الناس، بل يمكن اعتباره امتدادا للعالم العادي . ولكنه في هذا الدور قد دخل عمليا في قلب الجهاز الصحي للمستشفى . الجهاز الحقيقي . وفعلا ، فان عقلية الاطباء والمرضين ، ونفس المرضى ، تختلف قليلا بشكل ظاهر . فهم مقتنعون بأنهم يستقبلون في هذا الدور المرضى الحقيقيين ، ولو أنهم في حالة غير خطيرة .

ومن الاحاديث التي تبادلها كورتي مع جيرانه ، ومع الموظفين ، والاطباء ، ادرك كيف انهم في هذا الدور ، يعتبرون الدور السابع مهزلة، وجناحا مخصصا لهواة المرض من المصابين بالنزوات . ويمكن ان يقال، ان الاصابات الحقيقية ، لا تبدأ الا من الدور السادس. وعلى كل حال ، فقد فهم كورتي انه لكي يعود الى الدور العلوي ، الى المكان الذي يستحقه بحكم الطابع العام الذي يميز مرضه ، سيلاقي حتما بعض الصعوبات . لكي يعود الى الدور السابع عليه ان يحرك جهازا كاملا في منتهى التعقيد . ولو بمجهود قليل . فلا شك في أنه اذا لم يفتح فمه بالمطالبة ، فلن يفكر احد في نقله الى الدور السابع . دور الاصحاء تقريبا .

وقرر كورتي ألا يساوم في حقوقه ، وألا يستسلم الى اغراءات العادة . فكان يهتم جدا بأن يوضح لزملائه في القسم ، أنه مقيم بينهم لايام قليلة ، وأنه ، هو وحده الذي رغب في النزول مجاملة لامرأة، وأنه سيعود الى أعلى حالما تشغر أول حجرة . وكان الاخرون يصغون اليه في غير اهتمام ، ويوافقونه في اقتناع قليل .

وجد اقتناع كورتي تأكيدا تاما في احكام الطبيب الجديد. فهو أيضا يعترف بأنه من الممكن جدا تحديد مكان كورتي بين نزلاء الدور السابع. فحالته ـ قطعا ـ حالة خفيفة . وكان يقطع كلمات هذا الحكم لكي يسبغ عليه أهمية خاصة. ولكنه في الحقيقة ، يعتقد بأن الدور السادس أصلح لكورتي ، حتى يحظى بعلاج أدق ..

وفي هذه النقطة ، تدخل المريض في حزم واصرار قائلا :

ـ لا تبدأ بهذه الاساطير . لقد قررت ان مكاني هو الدور السابع. وأريد ان أعود . قال الطبيب :

ـ ان أحدا لم يقرر عكس هذا الكلام . ولكني أردت بكلامي هذا، نصيحة بسيطة صادقة ليست من طبيب ، ولكن من صديق الى صديق. وأكرر أن أعراضك خفيفة ، وليس من المبالغة أن أقول انك تكاد ألا تكون مصابا بأي مرض . ولكنه في رأيي يتميز عن حالات مشابهة بشيء من الانتشار . هل أنا واضح ؟.. حدة المرض في حدودها الدنيا ، ولكن اذا اعتبرنا الانتشار والاتساع ، فان التتابع التخريبي للخلايا ، وهو على الاطلاق ، في البداية ، بل لعله لم يبدأ ، ولكنه يميل ، أقول يميل فقط، الى اصابة مناطق واسعة من الجهاز . ولهذا فقط ، حسب رأيي ، يمكنك الحصول على علاج أنجع هنا. في الدور السادس، اذ ان الوسائل العلاجية أكثر دقة .

وفي أحد الايام ، نقل اليه أن المدير العام للمصحة ، قرر بعد التشاور الطويل مع مساعديه ، اجراء تغيير في تقسيم المرضى. فقيمة كل واحد منهم ستنزل نصف درجة أي انهم سيفترضون أن المرضى في كل دور سينقسمون الى قسمين ، حسب خطورة احوالهم الصحية . (وهذا التقسيم سيقوم به الاطباء المختصون بقصد الاستعمال الداخلي) .. ومن كانت حالته أسوأ ، في هذين النصفين ، أنزل الى الدور الادنى. مثلا ، سينقل الى الدور الخامس نصف المرضى من نزلاء الدور السادس. ممن يشكون حالات اشد خطورة . اما الحالات البسيطة فتنقل من السابع الى السادس .

وقد سر كورتي لهذا النبأ ، اذ ان عودته الى الدور السابع ستكون سهلة ويسيرة من خلال هذه التعقيدات الناشئة عن التنقلات . وحينما

عبر عن أمله هذا للممرضة ، كانت المفاجأة التي تدخرها له مريرة جدا. وعرف أنه سيزاح ، ولكن ليس الى السابع بل الى السدور السفلى . ولاسباب لا تستطيع أن تشرحها له الممرضة ، فقد تقرر وضعه ضمن النصف الذي يعاني حالة خطيرة من نزلاء الدور السادس . وعلى ذلك ينبغي أن يهبط الى الخامس . وكان كورتي يصغي الى هذه التبريرات بأعياء متزايد ، بسبب الحرارة التي أخذت درجتها ترتفع في بدنه، مع المساء . وأدرك اخيرا أن قواه أخذت تخذله ، وان ارادة التمرد على هذا الانتقال غير العادل قد أخذت تخبو ، ودون أية احتجاجات أخرى انتقل الى الدور التالي.

وكانت النعزية الوحيدة - رغم بساطتها - التي تخالج نفسه هي ادراكه بأن اجماع الاطباء والممرضين والمرضى منعقد على انه أخف نزلاء القسم الخامس حالة مرضية . وفي ذلك الدور يمكنه أن يعتبر نفسه أكبر المحظوظين ، ولكن من جهة أخرى كان يعذبه التفكير في أن حاجزين يفصلان بينه وبين عالم الناس العاديين ..

ومع تقدم الربيع ، أخذ الهواء يزداد فتورا . ولكن كورتي لم يعد يحب أن يطل من النافذة - كما كان يفعل في السابق - اذ أن خوفا مصحوبا برعشة ، كان يستولي على كيانه حين يقع بصره على نوافذ الدور الاول ، وهي في الغالب مقفلة . وقد اصبحت الان اكثر قربا منه . وبدت حالته المرضية ثابتة . وبعد ثلاثة أيام من الاقامة في الدور الخامس ، ظهرت على ساقه بوادر من مرض الاكزيما . ولم يبد في الايام التالية ، ما يدل على اختفائها . وقال الطبيب انها اصابة مستقلة كل الاستقلال عن مرضه الرئيسي ، وهو مرض يمكن ان يتعرض له أسلم الاشخاص في العالم . وينبغي عليه لكي يحد من انتشارها ، في أيام قليلة ، أن يواصل العلاج بالاشعة .

وتساءل كورتي :

- ألا يمكن استعمال هذه الاشعة هنا ؟

فأجاب الطبيب :

- بالتأكيد . انمصحتنا مزودة بكل شيء . ولكن هناك ازعاج وحيد ..

- ما هو ؟

سأل كورتي وهو يتوقع شيئا غامضا ، فتدارك الطبيب قائلا :

- أريد أن أقول أن أجهزة الاشعة مركبة فقط في الدور الرابع ، وأنا لا أنصحك بالنزول ثلاث مرات في اليوم ، ربما لا يلائم هذا صحتك.

- اذن ؟

- اذن . يحسن بك - طالما كانت هذه الاعراض ثابتة - ان تذهب للاقامة في الدور الرابع .

فصرخ فيه كورتي قائلا :

- يكفي . لقد نزلت ما فيه الكفاية . أتريد أن يقضي علي في الرابع ؟ لن أذهب .

- كما تريد .

قال ذلك الطبيب في هدوء خشية أن يثيره .

- ولكني كطبيب أسهر على علاجك ، أمنعك من النزول والصعود ثلاث مرات في اليوم .

والقبيح في الامر ، أن هذا المرض بدلا من ان يتوقف ، او يخف أخذ في الانتشار تدريجيا بشكل ملحوظ . ولم يستطع كورتي أن يجد الهدوء الذي كان يبحث عنه ، وظل يتقلب في الفراش ، واستمر هكذا غاضبا حانقا ثلاثة أيام ، ثم استسلم اخيرا . وطلب تلقائيا من الطبيب أن يمارس عليه العلاج بالاشعة ، وأن ينتقل الى الدور التالي.

وهنا ، في هذا الدور ، لاحظ في سرور مكتوم ، أنه يمثل استثناء فريدا . فمرضى القسم جميعا ، يعانون حالات حادة . ولا يمكنهم مغادرة السرير ، ولو دقيقة واحدة بينما كان هو يتمتع بامتياز الحركة على قدميه من حجرته الى قاعة الاشعة ، بين مجاملات واستغراب الممرضات.

وحدد الطبيب الجديد ، في اصرار ، حالته المرضية الخاصة، فهو كمريض من حقه أن يكون في الدور السابع ، بينما هو الان في الواقع ينزل في الرابع . وانه ينوي ان يعود الى اعلى حالما تنطفىء الالتهابات الجلدية . ولن يقبل أي اعتذار أو تعليل جديد . فهو من حقه قانونيا أن يكون في الدور السابع .

وقال الطبيب الذي يعوده في استغراب :

- السابع ! السابع . انكم دائما تبالغون أيها المرضى . انني انا الاول الذي أعلن اليك أنه ينبغي ان تكون مطمئنا الى وضعك. فكما يبدو لي من الجدول الخاص ، لم يطرأ أي تدهور كبير . ولكن ، وأرجوك أن تعذرني على صراحتي القاسية ، بين هذا الجدول ، وبين الدور السابع خلاف . أعترف بأن حالتك لا تدعو كثيرا الى القلق ، ولكنك مريض على كل حال .

قال كورتي ، وقد احمر وجهه :

- اذن . في أي دور .. تضعني أنت ؟

- آه .. يا الهي . ليس من السهل الجزم بذلك . لم أزرك الا زيارة قصيرة . لكي أنطق بحكمي ينبغي أن أراقبك مدة اسبوع .

قال كورتي :

- حسنا .. ولكنك ستعرف بعد قليل .

ولكي يدخل الطبيب الاطمئنان على نفسه ، تظاهر بأنه يتأمل ويفكر، وأخذ يهز رأسه في هيئة من يتحدث الى نفسه . ثم قال في هدوء :

- آه .. يا الهي. لكي أطمئنك ، أقول أنه يمكننا أن نضعك في السادس . أجل .. أجل - وتابع كلامه محاولا اقناع نفسه - السادس يصلح لك .

كان الطبيب يعتقد انه سيدخل السرور على قلب المريض بمثل هذا التصريح. بينما انتشرت على وجه كورتي تعابير الاستغراب . وادرك المريض ان اطباء الاقسام الاخرى قد خدعوه. وها هو الطبيب الجديد الذي يبدو أكثر خبرة ، وأعمق اخلاصا ، يقتنع في قرارة نفسه ، ان مكانه ليس السابع ، وانما هو الخامس ، بل أدنى من الدور الخامس. وأحس بالضيق من هذا الخداع الذي لم يكن يتوقعه. وفي ذلك المساء ارتفعت حرارته بشكل محسوس .

كانت الاقامة في الدور الرابع من أسعد الفترات التي أمضاها كورتي منذ دخوله المستشفى ، كما كانت أكثرها اطمئنانا . فشخصية الطبيب كانت لطيفة ، بادية العطف والاهتمام . كان يمكث عنده ساعات طويلة يتجادلان حول مواضيع مختلفة ، وكان كورتي يتحدث برغبة قوية ، ويفتش عن مواضيع تتصل بحياته العادية كمحام ، ورجل مجتمع. ويحاول ان يقنع نفسه بأنه ما يزال يمت لعالم الاعمال بأقوى الصلات ، وأنه مهتم بالوقائع العامة . كان يحاول ذلك ، من غير توفيق . اذ أن الحديث على تنوعه كان ينتهي دائما الى الوقوف عند المرض . وأصبحت الرغبة في أي نوع من التحسن هوسا متسلطا على كورتي. واذا كانت الاشعة قد أستطاعت ان تحد من انتشار مرضه الجلدي ، الا انها لم تكن كافية للقضاء عليه . وكان كورتي يتحدث طويلا ، كل يوم ، مع الطبيب ، ويجهد في أن يظهر قويا، في هذه الاحاديث، ويعمد الى المزاح في بعض الاحيان، ولكن دون ان يفلح.

قال للطبيب في أحد الايام :

في البحرين

تطلب ((الاداب)) وكتب ((دار الاداب))

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

ـ اخبرني يا دكتور .. كيف حال الدور التخريبية للانسجة ؟

فلامه الدكتور في لهجة مازحة :

ـ آه . ما أقبح هذه الكلمات ! أين تعلمتها . انها لا تليق . لا تليق فوق كل شيء بانسان مريض . لا أريد أن أسمع منك أبدا مثل هذه الاحاديث .

فرد كورتي :

ـ حسنا . ولكنك بهذه الطريقة ، لم تجبني.

فقال الدكتور في لطف :

ـ سوف أجيبك في الحال . ان الدورة التخريبية للانسجة ، رغبة في تكرار تعابيرك المفزعة ، انها في حالتك تمثل الحد الادنى. قطعا، الحد الادنى . ولكني اصر على وصفه بانه مرض عسير ..

ـ عسير ، تقصد ان مداه سيطول ؟

ـ لا تنسب الي ما لم أقل . أردت أن أقول أنه عسير. وعلى كل فان تلك هي الصفة الغالبة على جميع الحالات ، حتى الاصابات الخفيفة غالبا ما تكون في حاجة الى علاج قوي وطويل .

ـ ولكن ، اخبرني يا دكتور .. متى أستطيع أن أؤمل التحسن ؟

ـ متى ؟.. ان التكهن في مثل هذه الحالات شيء عسير . ولكن اسمع ..

وأضاف بعد وقفة تأملية :

ـ أرى أنك تنطوي على رغبة قوية وحقيقية في الشفاء . ولولا اني اخشى اغضابك ، فهل تدرك بماذا أنصحك ؟

ـ قل .. قل أيضا . يا دكتور ... وعلى كل حال ، فاني أضع أمامك السؤال ، في حدود واضحة جدا . فلو فرضنا أنني جئت الى هذه المصحة ، ولعلها افضل مصحه ، وأنا مصاب بهذا المرض ولو في أعراضه الخفيفة ، وأنت تحدد لي تلقائيا ، منذ اليوم الاول ، منذ اليوم الاول ، أتفهم ؟ أحد الادوار السفلى ، فتضعني مباشرة في ؟. الاول ؟ (وأضاف هذه الكلمة الاخيرة ، وهو يحاول ان يستدرج الطبيب اليها).

فأجابه الطبيب مازحا :

ـ كلا .. الدور الاول .. كلا . هذا لا يمكن ... ولكن الثالث أو حتى الثاني بالتأكيد . ان العناية في الادوار السفلى أحسن. انني أضمنها . الاجهزة أتم وأقوى. والموظفون أكثر خبرة . أنت تعرف أن روح هذا المستشفى هو ..

ـ أليس البروفسور داتي ؟

ـ أجل . البروفسور داتي . انه مكتشف العلاج الذي يمارس هنا. وهو مصمم هذه الاجهزة بكاملها . وهو على أستاذيته انما يقيم بين الاول والثاني. ومن هناك تشع قوته التوجيهية . ولكني أؤكد لك أن تأثيره لا يصل الى ابعد من الدور الثالث . اما ابعد من ذلك فان اوامره تصغر ، تفقد ارتباطها بشخصيته وتنحرف عن الخط المرسوم . أن قلب المستشفى تحت . وهناك يجب ان تبقى لكي تحصل على علاج احسن .

قال كورتي في صوت مرتجف :

ـ الخلاصة انك تنصحني ..

وتابع الدكتور كلامه في غير خوف :

ـ أضف الى ذلك شيئا اخر . انه في حالتك ينبغي الحذر أيضا من هذا المرض الجلدي . أقرك على انه شيء لا أهمية له . ولكنه مزعج، وقد يضعف قواك المعنوية مع طول الزمن . وأنت تعرف مدى أهمية الراحة النفسية في تحقيق العلاج . ان استخدامي للاشعة في علاجك كان نصف مثمر . والسبب ؟ ربما كان ذلك نتيجة صدفة خالصة ، أو من المحتمل أن تكون الاشعة غير حادة . ومع ذلك ، فآلات الاشعة في الدور الثالث قوية جدا .. واحتمالات الشفاء من الاكزيما ستكون أعظم . ثم تأمل، أنه متى تم توجيه الشفاء ، فقد انتهت الخطوة الصعبة . عندما تأخذ في الصعود ، يصعب ان تعود الى الوراء . وعندما تشعر حقا بالتحسن، فلن يحول حائل دون صعودك الينا هنا ، أو الى أعلى منا ، حسب استحقاقاتك .. حتى الخامس ، والسادس ، بل أقول حتى السابع..

ـ ولكن ، هل تعتقد ان هذا سوف يعجل في العلاج ؟

ـ ليس هناك شك . لقد قلت لك ماذا أفعل لو كنت في وضعك.

احاديث من هذا النوع ، كان يرددها الطبيب يوميا على كورتي . واخيرا . جاء الزمن الذي اصبح فيه المريض متضايقا من الام الاكزيما. فقرر ان يتبع نصائح الطبيب وينتقل الى الدور الثالث ، رغم مقاومته الغريزية للنزول .

ولاحظ في الحال ، أن نوعا خاصا من المرح يسود الدور الثالث سواء بين الاطباء والممرضات ، رغم ان حالات المرضى الذين يعالجون هناك تبعث على القلق الكثير . بل انه ادرك ان هذا الانشراح قد أخذ يتزايد من يوم الى اخر ، فدفعه الفضول ، بعد ان تعرف على بعض الممرضات، الى ان يسألها عن السبب في هذا المرح الذي يشمل الجميع.

أجابت الممرضة :

ـ آه .. ألم تعرف ؟ بعد ثلاثة أيام سوف نذهب في اجازة.

ـ كيف .. نذهب في اجازة ..!

ـ نعم . خمسة عشر يوما . سيغلق الدور الثالث ، وسيخرج الموظفون للاجازة. ان الاستراحة هنا تقع بالتناوب بين الادوار.

ـ والمرضى .. ماذا تفعلون بهم ؟

ـ حيث أن العدد قليل نسبيا، فسنصنع من الدورين دورا واحدا.

ـ كيف ؟ أتجمعون مرضى الثالث والرابع ؟

فاسرعت الممرضة تصحح :

ـ كلا.. كلا . من الثالث والثاني . المقيمون هنا ينزلون الى الدور التالي.

فقال ، وقد ارتسم على وجهه شحوب يشبه شحوب الموتى:

ـ ننزل الى الثاني ؟.. أنا أنزل الى الثاني ؟

ـ مؤكد . وماذا في ذلك من غرابة ؟ عندما نعود ، بعد خمسة عشر يوما ، ستعود أنت الى هذه الحجرة . لا يبدو لي أن هناك ما يفزع.

صدر حديثا

أزمة الجنس في القصة العربية

تأليف غالي شكري

دراسة وافية عميقة عن قضية الجنس وكيف عالجها اشهر الروائيين العرب المعاصرين

الثمن ٤٥٠ ق.ل

منشورات دار الآداب

وهاجم كورتي خوف عنيد ، ولكنه حين أدرك أنه ليس في امكانه ايقاف الموظفين عن الاجازة ، واقتنع بان العلاج الجديد بالاشعة الحادة، قد أثر عليه تأثيرا طيبا وان المرض الجلدي يكاد يجف تماما ، لم يجسر على اثارة اعتراضات شكلية ضد النقل الجديد . رغب فقط ـ غير مهتم بتهكم المرضات ـ أن تعلق على باب غرفته الجديدة ، لافتة كتب عليها (جيوسيبي كورتي .. من الدور الثالث ـــ اقامة عابرة). حدث كهذا لم يكن له نظير في تاريخ المصحة . ولكن الاطباء لم يعارضوا مدركين أن من كان في حالة عصبيةكحالة كورتي فان أقل مقاومة تسبب له هزة خطيرة . وكان عليه أن ينتظر خمسة عشر يوما بلا زيادة ولا نقصان . وأخذ كورتي يعد الايام في بخل عنيد ، ماكثا الساعات الطويلة في فراشه ، وعيناه تحدقان في الاثاث . وهو في الدور الثاني أقل جدة وانشراحا من الادوار العليا ، ولكنه يحتل امتدادات أكبر ، وتحمل خطوطه طابع الابهة والجهامة .

وكان يرهف السمع من حين الى اخر .. اذ يخيل اليه انه يصغي الى صدى حشرجات غامضة ، في النزع الاخير ، تأتيه من الادور الاول ، دور المحتضرين ، دور المحكوم عليهم بمغادرة هذا العالم.

وبالطبع ، فقد كان كل ذلك يساهم في توهين عزمه . فالاطمئنان القليل كان يضاعف المرض ، ودرجة الحرارة تتجه الى الارتفاع، والاعياء العام يزداد عمقا . ومن النافذة ـ كان ذلك في عز الصيف ، والزجاج يظل دائما مفتوحا ـ لم يعد يشاهد سقوف المنازل ، ولا يرى الا السور الاخضر من الاشجار التي تحيط بالمستشفى .

وبعد سبعة ايام ، وفي احدى الامسيات ، عند الساعة الثانية، دخل عليه فجاة رئيس المرضين ، وثلاثة ممرضين يدفعون سريرا متنقلا، وسأله رئيس المرضين في لهجة من الدعابة الطيبة :

ـ هل نحن مستعدون للانتقال ؟

سأل كورتي في لهجة مجهدة :

ـ أي انتقال ؟ ما هذه المهازل الجديدة ؟...! ألا يعود بعد سبعة أيام ، جماعة الدور الثالث ؟

فاستفسر رئيس الممرضين ، كما لو كان لا يفهم شيئا : (أي دور ثالث ؟ لقد تلقيت التعليمات بأنأقودك الى الاول . انظر هنا) وأطلعه على استمارة مطبوعة ، خاصة بنقله الى الدور الاول ، موقع عليها من البروفسور داتي نفسه .

وانفجر الرعب ، والغضب الجهنمي ، في صرخات طويلة ، تردد صداها في أرجاء القسم . وأخذ الممرضون يلتمسون منه الهدوء .. (مهلا .. مهلا .. من فضلك . ان هناك مرضى في حالة سيئة) ولكنهيهات.

واخيرا هرع اليه الطبيب الذي يدير القسم ، وكان شخصا لطيفا ومهذبا واستفهم عن الامر ، وراجع الاستمارات . ثم اخذ يوضح لكورتي، ثم التفت الى رئيس الممرضين في غضب ، معلنا أن هناك خطأ محققا، وأنه لم يصدر تعليمات من هذا النوع ، وأنه منذ زمن قد اصبحت تسود المستشفى فوضى لا تطاق ، وأنه قد اخفى عليه كل شيء . وأخيرا .. أملى تعليماته الى الموظف ، واتجه الى المريض يعتذر اليه في عمقوبلهجة لطيفة ، ثم اضاف قائلا :

ـ من المؤسف أنالبروفسور داتي ، قد سافر منذ ساعة ، في اجازة قصيرة ، ولن يعود الا بعد يومين تقريبا . انني متأسف ، ولكن أوامره لا يمكن أن تتجاوز ، سوف يكون البروفسور أول من يأنف لهذا الحدث، أؤكد لك أنني لا أستطيع ان أفهم كيف يقع خطأ من هذا النوع.

وانتابته رعشة محزنة أخذت تهزه ، وتخلت عنه قدرة السيطرةعلى نفسه . واحاله الرعب الى طفل صغير ، وكان نحيبه يتردد هادئا يائسا، في أركان الحجرة .

وهكذا ، وصل بسبب ذلك الخطأ الى المحطة الاخيرة . الى قسم المحتضرين ، وهو الذي يملك الحق بأن يكون في الدور السادس بحكم طبيعة مرضه ، وبحكم شهادة اكثر الاطباء تشددا وصرامة .. هذا ان لم يكن في الدور السابع .

وأصبحت حالته غريبة ، حتى أنه كان يحس في بعض الاوقات ، رغبة في البكاء ، دون تحفظ .

كان مضجعا على الفراش ، بينما كان المساء الصيفي الحار يمر ببطء فوق المدينة الكبيرة . وكان يتأمل اخضرار الاشجار ، من خلال النافذة ، وفي نفسه انطباع بأنه قد بلغ عالما غير حقيقي ، صنع من جدران سخيفة ، وأحجار عقيمة ، ومن وجوه بشرية بيضاء خالية من الروح. وطاف بذهنه ، ان الاشجار التي يلمحها من خلال النافذة، ليست حقيقية ، بل انتهى الى الاقتناع بذلك ، وهو يلاحظ ان اوراقها لا تتحرك على الاطلاق .

وأقلقته هذه الفكرة ، فضغط على الجرس ، ودعا الممرضة ، وطلب منها ان تقدم اليه نظارته الطبية التي لا يستعملها في العادة ، عندما يكون في الفراش . وحينذاك فقط استطاع ان يرتاح قليلا ، وبمساعدة العدسات استطاع ان يتأكد انها اشجار حقيقية ، وان الاوراق كانت تتحرك مع الريح. ولو انها كانت حركة خفيفة .

وحين خرجت الممرضة ، أمضى ربع ساعة في صمت تام .. سبعة ادوار .. سبعة ادوار خطيرة ـ ولو ان ذلك بسبب خطأ شكلي ـ تقع بوطأتها كلها فوق كاهله . كم من الاعوام ؟. أجل . ينبغي ان يفكر في الاعوام . بعد كم من الاعوام يمكنه ان يصعد الى حافة تلك الهاوية؟. ولكن كيف أظلمت الحجرة في عينيه على حين غرة ، والوقت ما يزال في عز الظهيرة .؟

وبمجهود فائق ، نظر « كورتي » الساعة التي تقع الى جوار سريره ، فوق دولاب صغير ، كانت الثالثة والنصف . وأدار رأسه الى الجهة الاخرى ، فرأى الستار الخشبي يهبط على النافذة تدريجيا، كأنما ينصاع لاوامر خفية ، لكي يسد منافذ النور .

البيضاء ـ ليبيا — ترجمة خليفة محمد التليسي

في الاسواق :

قضايا الشعر المعاصر

بقلم

نازك الملائكة

اوفى دراسة
وأعمقها في مشكلات الشعر
العربي الحديث

منشورات دار « الآداب » — الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا